أنس حسونة *

في الهويّة، الأسطورة، والذات في الرّواية الاستعمارية

خلقُ الأسطورة وحقّ القتل في الرّواية الإستعمارية

أمام جمع غفير من مستوطني مستعمرة مساشوستس، وقف جون وينثروب أوّل حكّام هذه المستعمرة قائلاً: «إنَّنا سنجد رب إسرائيل بيننا عندما سيتمكّن العشرة منّا من منازلة ألف من أعدائنا، وعندما سيُعطينا مجده وأبّهتهُ، وعندما يتوجّب علينا أن نجعل من (نيو إنغلاند) مدينة فوق هضبة».[١] وكان وينثروب قد «هاجر» مع آخرين من أوروبا إلى أميركا عام ١٦٣٠ وأسَّسوا هذه المستعمرة التي أطلقوا عليها لقب:«مدينة فوق الهضبة».

لا يزال هذا التعبير، مدينة فوق هضبة، يستخدم حتى زمننا الحاضر هذا، في خطابات الرؤساء الأميركيين وغيرهم من المسؤولين الأميركيين. وليست خطبة جون وينثروب هذه وغيرها، إلّا تجسيداً مباشراً للرّؤية التي ساقت أو ساقَها هؤلاء المستعمرون الأوائل إلى أميركا الشّمالية وكانت النواة الصّلبة لفكرة «أرض كنعان الإنكليزيّة» أو «إسرائيل الجديدة».

أسّست جماعات المستعمرين الأوائل ما يُعرف بـ«عقيدة القدر المتجلّي»، أي قدَرُ أميركا، ومعناه قدر أميركا الحتميّ في التوسُّع والحُلول محلّ كل آخرٍ «همجيّ». وتعود جذور هذه العقيدة إلى إيمان المستعمرين الأوائل، أنّهم ليسوا إلّا يهود الرّوح، البروتستانت الأنكلو ساكسون البيض؛ هؤلاء الذين هاجروا هرباً من ظُلم «فرعون لندن»، وخرجوا من «إنكلترا/ مصر»، إلى «كنعان/ أميركا»، ليؤسسوا هنالك مملكة الله على الأرض – المدينة فوق الهضبة، التي سيرعاها «يهوه»، إله العبرانيين في العهد القديم. يُتبَعُ هذا الإيمان بواجب مقدّس للمستعمِرين، وهو إبادة «الأميركيين الأصلانيين/ الكنعانيين»،

* كاتب وباحث، طالب ماجستير في الدراسات الإسرائيلية في جامعة بيرزيت

يكتب المؤرخ جابرييل بيتربرج في الاستعمار الصهيوني عن ثلاث أساطير مؤسّسة للرّواية الصهيونية والاستعمار الصهيوني في فلسطين. وهي، نفي المنفى، والعودة إلى أرض إسرائيل، والعودة إلى التّاريخ. وعبر هذه الأساطير، تتداخل الرّواية التوراتيّة مع الأسطورة القوميّة ومبادئ الفكر الأوروبيّ الحديث، كما في حالة الرّواية الاستعماريّة الأميركيّة.

ومن ثمّ إقامة دعائم مملكة الله على الأرض والحفاظ على عهدهم هذا بالمزيد من التوسُّع إلى الغرب؛ وهذا هو القدر المتجلّي، أي التوسُّع الدائم كما عبّر عنه السيناتور هارت بنتون في خطاب له أمام مجلس الشيوخ عام ١٨٣٦، بقوله: «إنّ قدر أميركا الأبديّ هو الغزو والتوسّع، إنّها مثل عصا هارون التي صارت أفعى وابتلعت كلّ الحبال.. ذلك هو قدرها المتجلّي، أعطِها الوقت وستجدها تبتلع في كلّ بضع سنوات مفازات باتساع معظم ممالك أوروبا. ذلك هو معدل توسُّعها».[٢]

لا تقف الأسطورة الدينيّة عند حدود «سفر التّكوين»، بل تتعدّاه إلى الترابط جذرياً مع المنظومة الفكريّة الأوروبيّة؛ تلك التي يجد فيها نورمان فنكلستاين تشابهاً بين الخطاب الاستعماري الأميركي والخطاب الاستعماري الصهيوني في كلمات تيودور روزفلت الذي قال: «إنّ انتشار الإنكليز في العالم هو أحد أكثر السّمات الصاعقة لتاريخ العالم.. أنّ الأرض لم تكن مملوكة لأحد، والمستوطنون، حقاً، لم يطردوا أحداً.. الهنود لم يملكوا في يوم من الأيّام أي ارتباطٍ بالأرض». ويضيف فنكلستاين انه ليس من الصّعب بمكان العثور على التّشابه بين هذه الرؤية للتاريخ ولتاريخ الاستعمار الإنكليزيّ على وجه الخصوص وبين الخطاب الاستعماري الصهيوني الذي بنى دعائمه النّظريّة الأوّلية على فكرة: «شعب بلا أرض، لأرض بلا شعب.»[٣]

وكما هو الحال مع المستوطنين الأوائل بما يتعلّق بالتوسُّع كحقّ وواجب إلهيّ، كذلك استمرّت هذه العقيدة عبر الأجيال اللاحقة في الولايات المتّحدة الأميركيّة، بوصف التوسّع ليس إلّا تحصيل حاصل للتقدّم، وأنّ «الغزو قد يكون مشحوناً بالخير أو بالشر للبشر، ولكن هذا يعتمد على مقارنة أساسيّة وهي قيمة الغزاة وقيمة المَغزوّين».[٤] وبالنسّبة للاستعمار الأميركيّ ومكانة الأسطورة الدينيّة في أيديولوجيا الاستعمار، فإنّ الأجيال اللاحقة اعتقدت كالآباء المؤسِّسين للاستعمار والإمبراطوريّة في آن؛ أنّ المستوطنين الأوائل كان لهم الحقّ الكامل في الاستيلاء على الأرض، وأنّ القارة بأكملها كان مقدّراً لها أن تكون لهم – وهذا يُذكِّرُ بأسطورة نفي المنفى الصهيونيّة التي تدّعي أنّ الأرض/ أرض إسرائيل، كانت في حالة منفى عن سُكّانها الأصلانيين عبر آلاف السّنين – وكذلك تتقاطع الأسطورة الدينيّة مع أيديولوجيا الحضارة حينما ينظِّر الأوائل واللاحقون أنّ ذلك الاستعمار كان من أجل الحضارة ونفع البشريّة.[٥] فقد رأى المستعمرون في القرنين السابع والثامن عشر أنّ الحضارة لا بدّ أن تتقدّم، وأنّه من المقدّر لها عاجلاً أو آجلاً التقدّم، وأنّ السكّان الأصلانيين ليسوا إلّا أضراراً جانبيّة إذا ماتوا، وسيكون من الجيّد لهم إن هم عاشوا وفقاً للمبادئ الأوروبيّة،[٦] هذا إذا استطاعوا أن يكونوا أوروبيين حقاً.

ويكتب المؤرخ جابرييل بيتربرج في الاستعمار الصهيوني عن ثلاث أساطير مؤسِّسة للرّواية الصهيونية والاستعمار الصهيوني في فلسطين. وهي، نفي المنفى، والعودة إلى أرض إسرائيل، والعودة إلى التّاريخ. وعبر هذه الأساطير، تتداخل الرّواية التوراتيّة مع الأسطورة القوميّة ومبادئ الفكر الأوروبيّ الحديث، كما في حالة الرّواية الاستعماريّة الأميركيّة.

تؤسِّس أسطورة «نفي المنفى» لحقيقة تاريخيّة أساسيّة بالنّسبة للحركة الصهيونيّة وهي أنّ اليهود كانوا «أمّة ذات إقليم محدد». وحيثُ أنّهم كانوا أمّة لأرض، لإقليم محدد؛ فهم منذ أن غادروا الأرض إذاً، في وضع غير طبيعيّ وغير مكتمل وغير مثاليّ.[٧] ولذلك فإنّ حالة المنفى هذه المستمرّة منذ قرون طويلة ليست إلّا حالة انتظار للخلاص والعودة، وليست فترة زمنيّة لتأسيس أيّ أسطورة أو رواية قوميّة أخرى عدا هذه الرّواية القوميّة التاريخيّة، حيث في هذه الأرض وحدها يمكن لليهود أن يكونوا أمّة في حالة كاملة، طبيعيّة ومثاليّة.[٨] وهنا تكمل الأسطورة الثانية الأولى، حيث تصبح «العودة إلى أرض إسرائيل»، عمليّة إعادة تطبيع لأمّة يهوديّة، وتشبه هذه العودة المتخيَّلة، القصّة التوراتيّة لهجرة اليهود من بابل إلى أرض إسرائيل، كما ساد الاعتقاد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في الثقافة البروتستانتيّة في أميركا.[٩] ويوضّح بيتربرج أنّ تسمية الحركة الصهيونيّة لهذه الأرض بالأرض الخالية لا يعني أنّ الحركة كانت تجهل الوجود العربيّ في فلسطين، أو أنّها تعمّدت تجاهل هذا الوجود؛ بل كانت خالية بمعنى أكثر

في بداية القرن التاسع عشر، أوصى توماس جيفرسون، ثاني رؤساء الولايات المتّحدة، بإبادة الأميركيين الأصلانيين ونفيهم إلى أبعد مدى ممكن. ومن بعده أطلق ثيودور روزفلت عبارته الشهيرة: «لن أذهب إلى حد قول أنّ هنديا طيّباً هو هندي ميت، لكنها في الواقع حالة تسعة من كلّ عشرة منهم، ولن أضيّع وقتي مع العاشر». وبالنّسبة لبعض المؤلّفين، فإنَّ «إبادةً جماعيَّة»، قد حصلت في أميركا، وهي تَرقى إلى وصفها بـ«المحرقة الأميركيّة»، سواء أكان ذلك عائداً إلى أسبابٍ سياسيَّة أم اقتصاديَّة، أم أسطوريَّة.

عمقاً من هذا، من مجرّد الخلوّ السكّاني الملموس:

«الأرض أيضاً، كانَ محكوماً علَيها أنْ تَكون منفيَّةً طالما أنَّ اليَهود لَم يَملِكوا سيادةً علَيها: حيثُ افتقدت أيَّ معنى لنَفسها، في انتظار الخلاص لعودة اليهود إلَيها. الشّعارُ الصّهيوني الأكثر شُهرة «أرضٌ بِلا شعب لشَعب بلا أرض»، يُعبِّرُ عن معنى ثنائيَّ: التَّجربة التَّاريخيَّة لكلٍّ من اليهود في المنفى، ولفلسطين بِدُون السِّيادة اليَّهوديَّة».[10]

وهنا تكمل الأسطورة الثالثة ما أسطَرَتْ لهُ كلٌّ من الأولى والثانية عن أمّة قوميّة وأرض خالية؛ وهي تستمدُّ مفاهيمها وتصوّرتها من الإرث الأوروبيّ للدولة القوميّة. تستند أسطورة «العودة إلى التاريخ»، إلى حقيقة ثابتة في الفكر الأوروبيّ وهي أنُّه ومنذ فجر التّاريخ كان البشر جماعاتٍ، وأنّ الشكل الأكثر رقيّاً وغير القابل للرّفض للجماعات البشريّة هو الدّولة القوميّة. وطالما أنّ اليهود عاشوا هذا الزمن في المنفى، وفلسطين/ أرض إسرائيل كذلك، فقد كانوا إذاً بحكم الخارجين من التّاريخ، ولن تتمّ العودة إلى التّاريخ إلّا بالعودة إلى فلسطين/أرض إسرائيل. فالعودة إلى فلسطين/ أرض إسرائيل، تمثّل في جوهرها عودة اليهود إلى التاريخ وعودة فلسطين/ أرض إسرائيل إلى تاريخها؛ إلّا أنّ العودة إلى التاريخ العام، أي عودة اليهود إلى تاريخ الأمم الأخرى، لا تتّمُّ إلّا بأن يكونوا أمّة ذات سيادة على دولة قوميّة يعيش فيها اليهود وهي دولة اليهود.[11]

يعبّر هرتسل في كتابه «دولة اليهود»، عن هذه الأساطير الثلاثة مجتمعة، بوصفه فلسطين على أنّها الموطن الخالد لليهود، وأنّ اسمها وحده يكفي لجمع شتاتهم وقواهم من كلّ العالم لما له من وقع سحريّ في دواخلهم يدفعهم للعمل على مشروعهم الاستعماريّ.[12] وكذلك إشارته إلى ارتباط هذا المشروع الوثيق بالاستعمار العالميّ، الذي كان يُناشده على مدى صفحات كتابه بأن يكون الدّرع الحصين لهذه الدّولة بوصفها جزءاً لا يتجزأ من تاريخ هذا الاستعمار، والنّهاية الأكثر رمزيّة لتاريخ طويل من التشرّد والاضطهاد الذي عاناه اليهود لأكثر من ثمانية عشر قرناً.[13]

في كلتا الروايتين الاستعماريّتين، يتبادل المستعمِر الإنكليزيّ والصهيونيّ، تاريخاً من الأساطير أساسُها الحقّ الإلهيّ، التاريخيّ والحضاريّ، للغزو والاستعمار. بنيانُهُما النظريُّ الأساس، هو استبدال شعبٍ بشعب، وثقافة بثقافة، واجتياح أرض الغير؛ تحت استعارات دينيّة وروايات تاريخيّة متخيّلة، تؤكِّدُ الحقّ الإلهي لهذا الشعب أو ذاك، أو بمبررات حضاريّة تؤكِّدُ على التفوّق الأوروبيّ على همجيّة العربيّ/ الأميركيّ الأصلانيّ، وضرورة تقدّم الحضارة وحتميّتها؛ مفسحاً هذا كلُّه، لاكتساب حقّ القتل، الاستباحة والإبادة.

حقّ القتل

في بداية القرن التاسع عشر، أوصى توماس جيفرسون، ثاني رؤساء الولايات المتّحدة، بإبادة الأميركيين الأصلانيين ونفيهم إلى أبعد مدى ممكن. ومن بعده أطلق ثيودور روزفلت عبارته الشهيرة: «لن أذهب إلى حد قول أنّ هنديا طيّباً هو هندي ميت، لكنها في الواقع حالة تسعة من كلّ عشرة منهم، ولن أضيّع وقتي مع العاشر».[14] وبالنّسبة لبعض المؤلّفين، فإنَّ «إبادة جماعيَّة»، قد حصلت في أميركا، وهي تَرقى إلى وصفها بـ«المحرقة الأميركيّة»، سواء أكان ذلك عائداً إلى أسبابٍ سياسيَّة أم اقتصاديَّة، أم أسطوريَّة كتلك التي استعرضناها في بداية هذه الورقة. ولكنّ ما هو ثابتٌ بصورة لا تقبَل الشكَّ، هُو أنَّ سكَّان أميركا الأصلانيين، قَد تم اعتبارهم كائنات ضارَّة، أدنى من البشَر الطَّبيعيين، ولذلك توجَّب العمل على القضاء عليهم، في محرقة لا تزال مستمرَّة منذ وصول أوائل المسعمِرين وحتى اليوم.[15] حق القتل، أو حق التضحية بالآخر .هو الحق الذي شعر المستعمرون الأوائل بأنَّهم يملكونه على هذه المخلوقات «الهمجيَّة» التي لا فرق بينها وبين البهائم، وهذا الحق تطوَّر فيما بعد إلى حق الحَضارة بالتوسّع، والاتجاه غرباً، وسحق أي «آخر» يعارض هذا التقدم الحضاري. لقد تطور هذا الحق من

مجرّد وعد إلهيّ، فوق سفينة آربيلا الأسطوريَّة وقسّها الشَّهير جون وينثروب، والعهدُ الذي أقامه المُستعمرون بينهم وبين «يهوه» إله العهد القَديم في إقامة مملكة كنعان الجَديدة فوق المَدينة التي فوقَ الهضبة، إلى ما يشبه الدّين المدنيّ في أميركا العصر الحديثْ.[١٦] هذا الدّين المدنيّ، القديم المتجدد، هو الذي يَقول بحقّ أميركا في السِّيادة على العالم، وهو عقيدة القدر المتجلي؛ العقيدة التي تقول بأنّ قدر أميركا المتجلِّي قد بدأ مع رحلة السفينة الأسطوريَّة، وتوسّعها إلى الغَرب، وامتدادها إلى أن صارت إمبراطوريَّة. وقد تطور هذا المفهوم، حتّى صارت له دعائم نظريَّة ومبررات أبرزها، نظرية «الجغرافيا الحيوية»، التي تقوم على أنَّ المكان الجُغرافي للدولة المتفوّقة هو كائن حيَّ ينمو باستمرار – ولا يموت – وأنّ «يد القدر هي من ترسم حدود هذه الدَّولة وتقودها إلى حيث تريد»، أيْ، أنّ العالم كله هو مجاهل أميركا، ولها الحق في إعادة اكتشافه واستعماره كما كان الأمر مع اكتشاف أميركا الشمالية واستعمارية وإبادة سكّانها.[١٧] وفي منطق المجاهل ذاته، يَقول بيتربرج عن الأرض الفارغة من الفلسطينيين بالنّسبة للحركة الصَّهيونيَّة، أنَّها لَم تَكُن فارغة منهُم، بَل أنَّهم كانوا موجودين حقاً، ولكنْ، ليس كسكّان لهذه الأرض، بَل كجزءٍ من الطَّبيعة ذاتها، جزء من البيئة لهذه الأرض، كَما كان الكنعانيون في التَّوراة وحوشاً ويشكِّلون لإله العهد القَديم إحدى هباته لشعب إسرائيل.[١٨]

عن هذا المَنطق في تبرير القتل، يكتب رَسِلْ مِينزْ،[١٩] الذي يَكادُ يكون مثقَّفاً فلسطينيّاً، يقف على تخوم صبرا وشاتيلا أو كفر قاسم، أنّ الأوروبيين، قاموا دائماً وأبداً بتفريغ الكون من روحه، وتحويله إلى عالم ماديّ، رياضيّ. وفي هذا الكون الماديَّ، وعبر المنطق ذاته، لا يزالون يقومون بتحويل «الآخر»، إلى أقل من إنسان. ولمّا كانت إحدى وصايا المَسيح أن لا تقتل –البشر على الأقل– فقد مسَخوا الأميركيين الأصلانيين إلى كائنات أقلّ من البشر، كائنات ضارّة وواجب قتلها، بل إنّ قتلها يعدُّ فضيلة في حدّ ذاته.[٢٠]

درويش ورسل مِينز: ثنائيات اللغة والهويَّة الهويَّة بمنأى عن أعدائها

الهويّة لغة، يكتب درويش قائلا: «أنا لغتي»؛ جاعلاً من الهويّة امتيازاً للغة بصورة تامّة، ويقول رسل مينز، في وصفه لَمن هو: «أنا أوغلالا لاكوتا وطنيّ، وهذا كلُّ ما أريد أن أكونه، وما أحتاج أن أكونه، وأنا مرتاح مع نفسي هكذا».[٢١]

يفرّق مينز بين الخطاب المنطوق غير المكتوب، وبين اللغة المنطوقة وتلك المكتوبة، كما يراها «الأوغلالا الوطنيّ»: «إنّ ثقافتي، ثقافة اللاكوتا، لديها تقاليد شفويّة، ولذا فمن الطبيعيّ أنني أرفض الكتابة. هذه إحدى طرق العالم الأبيض في تحطيم وتدمير الثقافات غير الأوروبيّة.. بإضفاء الشرعية على تلك الثقافات المكتوبة، على أنّها طرق تفكير شرعية».[٢٢]

ورغم الفارق الثقافيّ، بين من يُسأل عمّن هُو فيُجيب: «هذا سؤال الآخرين ولا جواب له/ أنا لغَتي/ وأنا معلّقة.. معلّقتان.. عشرٌ/ هذه لغتي/ أنا لغَتي..»،[٢٣] وبين من يرى أنّه ليس إلّا «لاكوتا أوغلالا وطني»، لا يعترف بالكتابة ولا يرغب بها هويّة أو ثقافة كي تُعرِّفَ من هو، إلّا أنّ درويش يأخذ كلتا الهويّتين، الفلسطينيّة والأصلانية الأميركيّة، إلى ملتقاهُما، حيث تصبح قصيدة درويش أكثر أهميّة من نص كتب بالحبر الأبيض ولم يُعبِّرَ سوى عن نقص في الذات الأوروبيّة، عبر الكتابة أو الكلام. لا فرق سيحدِثهُ هذا بالنّسبة لنص رسل مينز، الذي يبيِّن الفارق اللغوي والثقافيّ بين عالمين منفصلين، هما الأوروبيّ والأميركيّ الأصلانيّ. وهنا لا بدّ من ملاحظة أنّ مينز، حينما يفرِّق بين لغته المنطوقة ولغة الأوروبيّ المكتوبة، لا يفرِّقُ بين طريقتين في التعبير عن الذات، بقدر التّفريق بين ذاتين تفكِّران بشكلٍ مختلف. فاللغة لدرويش، مكتوبة أم منطوقة، هي هويّة بالنسبة لشاعر مثله، أمّا لمينز، فالهويّة أوسَعُ من لغة منطوقة أم مكتوبة، بل هي الشَّفاهة بكونها تعبير مباشر عن حالة ثقافيّة بأكملها.

في قصيدته «خطبة الهنديّ الأحمر ما قبل الأخيرة»، يَبنِي درويش الهويّة على ما ليست عليه وعلى علاقتها بالآخر في وجودها في تاريخها الخاصّ. فالهويّة، تعرَّفُ بما ليسَ هي علَيه،[٢٤] وهي أيضاً، تعرَّفُ من خلال الضّمائر، الأنا، وعلاقة هذه الأنا بالموضوع، والأنا بالآخر، والأنا بالأنا ذاتها.[٢٥] فابتداءً بالضّمير «نحن» في مطلع القصيدة، تنسج القصيدة على طول سطورها، هويّتان نقيضتان. واحدة أصلانيّة هندية حمراء، تخبرُ عن نفسها وعن آخَرِها؛ فالهويّة عند الآخر وسيرته الذاتية في هويّة الأنا في القصيدة متشابكتان بما تخبرهُ الأخيرة عن الأولى، وبما تخبرُ الأولى عن نفسها أنَّها هي ما عليه بعيداً عن الآخر، لأنّ تاريخاً سابقاً قد شكَّل هويّة بمنأى عن الغزاة القادمين عبر الأطلسيّ.

لم تعش الهويّة الهنديّة أزمة وجوديّة تتعلق بوجود الآخر، فهي باتصال قديم وعميق مع الأرض التي تسكنها والتي من خلالها تبني ذاتها وتكوّن وترى فيها ومن خلالها، لا من خلال أزمة وجودية لحضارة تفكّر كيف ستنجو من الزّوال أو حتى من الانتصار.

> **يقتبس درويش في بداية قصيدته الشهيرة «خطبة الهندي الأحمر ما قبل الأخيرة» سطرين من خطبة الزعيم الهنديّ الأحمر في سياتل زعيم دواميش: «هل قُلتَ موتى؟ لا موتى هناك.. هناك فقط تبديل عوالم..». وفي ربيع عام ١٩٩٢، كتب أحد أصدقاء المؤرّخ منير العكش إليه، وهو من شعب السّو الهندي، رسالة يعلّقُ فيها على ما ورد في مقال لنيويورك تايمز: «وإذن خدعت.. كما خدِعَ شاعري المفضّل محمود درويش، لقد محيت رواية الهنود لتاريخهم. تاريخنا مكتوب بالحبر الأبيض. إنّ أوّل ما يفعله المنتصر هو محو تاريخ المهزوم.. قل لدرويش: إنّ جلادنا المقدّس واحد، وأنّه يواصل حرب الإبادة من قبره للنهاية. لهذا وجدت نفسي في قصيدته أكثر مما وجدتها في خطبة زعيم سياتل».**

جلاد مقدّس واحد

يقتبس درويش في بداية قصيدته الشهيرة «خطبة الهندي الأحمر ما قبل الأخيرة» سطرين من خطبة الزعيم الهنديّ الأحمر في سياتل زعيم دواميش: «هل قُلتَ موتى؟ لا موتى هناك.. هناك فقط تبديل عوالم..». وفي ربيع عام ١٩٩٢، كتب أحد أصدقاء المؤرّخ منير العكش إليه، وهو من شعب السّو الهندي، رسالة يعلّقُ فيها على ما ورد في مقال لنيويورك تايمز: «وإذن خدعت.. كما خدِعَ شاعري المفضّل محمود درويش، لقد محيت رواية الهنود لتاريخهم. تاريخنا مكتوب بالحبر الأبيض. إنّ أوّل ما يفعله المنتصر هو محو تاريخ المهزوم.. قل لدرويش: إنّ جلادنا المقدّس واحد، وأنّه يواصل حرب الإبادة من قبره للنهاية. لهذا وجدت نفسي في قصيدته أكثر مما وجدتها في خطبة زعيم سياتل».[٢٦] وكان ذلك تعليقاً على مقال لنيويورك تايمز، تبيّن فيه أنّ الخطبة الشهيرة المنسوبة للزعيم الهنديّ زعيم سياتل، والتي كانت نصّاً يعدُّ للكثير من الباحثين والأميركيين الأصلانيين، أحد أهم مصادر تاريخ الأصلانيين، وهو نفسه النصّ الذي استوحى منه درويش قصيدته بالإضافة إلى قراءات أخرى كثيرة؛ تبيّن الجريدة أنّ النصّ كتب بواسطة أستاذ للأدب في جامعة بوسطن، أي، أنّه كتب بواسطة الحبر الأبيض.[٢٧]

في حديثه عن علاقة الأنا بالآخر، يكتب درويش أنه حين يقرأ أناه من خارجها، ويكون الآخر الذي هو الغريب موجود بدلاً منه في مكانه – في الأرض – يصطدم حينها التنقيب عن الذات، أركيولوجياً، بواقع، بحاضر وبتاريخ من الحروب والثقافات المتعددة. يحيل ذاك إلى سجال فكريّ مع الآخر وصدام، صدام يملكُ هو، درويش، الجرأة الكافية ليبحث عن نفسه فيه، في الآخر، ولا يملك هذا الآخر الجرأة ليرى نفسه فيه لأنّه ينكر وجوده. فإن حاول الاقتراب منه فإنّه سيعترف ولو بجزء قليل منه، وهذا ما سيضع وجوده، وجود الآخر، موضع تساؤل وشكّ.[٢٨] لذا لا يملك الآخر ما يكفي من ثبات الهويّة وثبات المكان ما يمكنه من رؤية نفسه في درويش، ولا في زعيم سياتل. إنّ تلك النّظرة الحالمة التي أغدقها الأستاذ في جامعة واشنطن، وهو ليسَ بالشّخص المعنيّ هنا وحده، بَل كافَّة البيض، هي جزء من النّظرة الاستعلائيَّة ذاتها، التي تصفهم بالهمج، لأنّها تحمل هنا تفوّقاً عقلياً وحضارياً. وعندما تصفهم بهذه الطّيبة الأقرب إلى البلاهة وهذا الجمال كلُّه، الذي يقوم على اتّصال متواصل مستمر لانهائي مع الطَّبيعة حتى تكاد أو هي كذلك، تكون الطَّبيعة هي الأمّ بالنّسبة لهم، هي أيضاً نظرة استعلائيَّة، ترى في هذا تأخّراً، وجزءاً من همجيَّة سابقة، تأخراً عقلياً، عدم قدرة على التفكير العقلاني وعدم فهم للطَّبيعة الأوروبيَّة التي تمثِّلُ التقدّم الإنسانيّ. لهذا، لَم يَستطع الأوروبيُ أبداً، أن يَرى نفسه في الهنديّ كما هو الهندي، أن يرى من أين أتى هذا الهنديُّ وأين يذهب، وهو ما زال يقول له منذ مئات السّنين، أنَّه لن يذهب إلى أيِّ مكان، إلَّا إلى الأرض ذاتها.

> «لَن يَفهَم السيِّدُ الأبيضُ الكلماتِ العتيقة
> هُنا، في النفوس الطَّليقةِ بين السَّماء وبَينَ الشَّجَرْ..
> فمن حقِّ كولومبوس الحرّ أن يجدَ الهند في أيّ بحرٍ،
> ومن حقّه أن يُسمِّي أشباحنا فلفلاً أو هنوداً،
> وفي وُسعهِ أن يُكسِّر بوصلة البحْر كي تستَقِيمْ
> وأخطاءَ ريح الشّمال، ولكنّه لا يصدّق أن البشرْ
> سواسيَةٌ كالهواء وكالماء خارجَ مملكةِ الخارطةَ»

في هذه السّطور، يكتب درويش، سيرة البداية؛ منذ وصول كولومبوس، إلى شواطئ الكاريبي، متطلّعاً إلى وجوه الهنود الذين قابلوه على الشَّاطئ، ومفكّراً، في الذّهب الذي يلبسونه وفي أرضهم الشّاسعة، مستعيراً كلمات الزّعيم الهنديّ الآخر الذي

درويش القارئ لتاريخ الاستعمار الأميركي، وللكثير من النَّصوص الهنديَّة، يكمل رسم رحلة الموت التي عاشَها الهنود بدءاً بالأسطورة الدينيّة، مروراً باحتكار الربّ وحق القتل وبالحضارة ذاتها. هذه الحضارة التي يَقول عنها مينز:«بعد كلّ شيء، فلاسفتهم قاموا بتجريد الكون من روحه، ولذا، فلن يكون هناك إشباع بالنّسبة لهُم، فقط في مراقبة روعة الجَبل، أو بحيرة، أو أناس موجودون. لا، الإشباع مُقاسٌ بمصطلحات المنفعة المادّية. لذا، الجَبَل يُصبحُ حصى، والبُحيرةُ تصبحُ مَبرَداً لمصنعٍ، والبشَرُ يتمُّ توجيههم من خلال عمليَّة طحنٍ في مطاحنٍ تُسمَّى المَدارس».

يسائل شعبه إذا ما كانوا يعرفون ما الذي يريده حقاً السيد الأبيض، ويجيبهم أنْ ننزاح، أن ننزاح أكثر وأكثر.[٢٩] اللغة أيضاً هي ما لا يفهمه لا البيضُ ولا السكَّان الأصلانيون. فمينز يعتقد أنّ الأوروبيين كانوا وما زالوا، يحاولون أن يستوعبوا كلّ شيء، أن يجعلوا من الأشياء محسوسة ملموسة، أن يفرغوا الكون من روح الطَّبيعة، أن يتخلَّوا عن الشَّاسع من أجل الضّيق المحاط بالأسوار،[٣٠] «خارجَ مملكة الخارطة»، ويكمل درويش،«وأنَّهم يولدون كَما يولدُ النَّاس في برشلونة، لكنَّهم يعبدون إله الطَّبيعة في كلَّ شيء/ ولا يَعبَدُون الذّهب../ وكولومبوس الحرّ يبحث عن لغة لَم يجدها هنا،/ وعن ذهب في جماجم أجدادنا الطّيِّبين،/ وكان له ما يريد من الحيّ والميِّت فينا. إذاً/ لماذا يُواصلُ حرب الإبادة من قبره للنهاية؟». يحاول درويش، أن يستوعب هنا، سيرة البحث عن الذهب، بدءاً من حمّى كولومبوس بالذّهب، وعودته إلى إسبانيا وهو يهلهلُ للبلاطِ الملكيّ أن الملك سيتربَّع على «عرشِ الزَّمانِ الجَديد»، على حدّ وصف درويش، ومروراً، بسرقات المقابر التي أدمنها المستعمرون الأوائل لمقابر الهنود الحمر بحثاً عن الذّهب وما يتركه الهنود في قبور موتاهم، وانتهاءً بحمَّى الذهب التي اجتاحت أميركا في القرنين الثامن والتاسع عشر، بحثاً عن الذهب في المناطقِ التي كان الهنود قد أبعدوا إليها وفقاً لمعاهدات وراء المسيسيبي، ولَم يسلموا حتى هناك من طمع المستعمِر.[٣١]

«أسماؤُنا شجرٌ من كلام الإله، وطيرٌ تحلّق أعلى
من البندقيَّة. لا تقطعوا شجر الاسم يا أيُّها القادِمونَ
من البحرِ حرباً. ولا تنفثُوا خيلكم لهباً في السُّهولْ
لكُمْ ربُّكم ولنا ربُّنَا، ولكُمْ دينكُمْ ولَنا دينُنَا
فلا تدفنوا الله في كتُبٍ وعدَتكمْ بأرض على أرْضنا
كما تدَّعونَ، ولا تجعلُوا ربَّكُمْ حاجباً في بلاط المَلِكْ!»[٣٢]

في هذا المَقطع، يَكتُبُ دَرويش، سيرة البدايات للأسطُورة الدّينيَّة، الخاصَّة بالرّواية الاستعماريّة. موظفاً عبارة كرومويل: «الله رجل إنكليزيّ»،[٣٣] وهو يمايز بين نوعين من الإيمان. الأول إيمان يقوم على توظيف الله في الحرب، إيمان بأسطورة تعد بأرض لشعب لم يطأها من قبل، وإيمان آخر، من نوع آخر، يؤمن باستمرارية الأشياء رغماً عن الإنسان؛ أنّ الإنسان لا ينفصل عن الطبيعة وهو أكثر مخلوقاتها ضعفاً، وأكثرها حاجة لمن حوله، وليس من حقه أن يعد نفسه بشيء ولا أن يحاول القفز فوق دوره الطبيعيّ في الطبيعة، كما يصف مينز،[٣٤] في عبارة شديدة الكثافة:«أن تَكونْ، هوغايَةٌ روحيَّة، أن تَنتَفعْ هُو فعلٌ ماديّ».

«نبشِّركُم بالحَضارةِ» قالَ الغَريبُ، وقالَ: أنا
سيِّدُ الوقتِ، جئتُ لكي أرثَ الأرضَ منكُمْ،
فمرُّوا أمامي، لأحصيَكُمْ جثَّةً جثَّةً فوقَ سطحِ البحيرَة
«أبشِّركُم بالحَضارةِ» قالَ، لتحيا الأناجيلُ، قالَ، فمرُّوا
ليبقى ليَ الرَّبُّ وحدي، فإنَّ هُنوداً يَموتونَ خَيرٌ
لسيِّدنا في العُلى من هُنودٍ يعيشونَ، والربُّ أبيَضْ
وأبيَضُ هذا النَّهارُ: لكم عالمٌ ولنا عالمٌ
يقولُ الغَريبُ كلاماً غَريباً، ويحفرُ في الأرضِ بئراً
ليدفنَ فيها السَّماءَ. يقولُ الغَريبُ كلاماً غريباً
ويصطادُ أطفالنَا والفَراشْ..»[٣٥]

درويش القارئ لتاريخ الاستعمار الأميركي، وللكثير من النَّصوص الهنديَّة، يكمل رسم رحلة الموت التي عاشَها الهنود بدءاً بالأسطورة الدينيّة، مروراً باحتكار الربّ وحق القتل وبالحضارة ذاتها. هذه الحضارة التي يَقول عنها مينز:«بعد كلّ شيء، فلاسفتهم قاموا بتجريد الكون من روحه، ولذا، فلن يكون هناك إشباع بالنّسبة لهُم، فقط في مراقبة روعة الجَبل، أو بحيرة، أو أناس موجودون. لا، الإشباع مُقاسٌ بمصطلحات المنفعة المادّية. لذا، الجَبَل يُصبحُ حصى، والبُحيرةُ تصبحُ مَبرَداً

لمصنع، والبشَرُ يتمُّ توجيههم من خلال عمليَّة طحن في مطاحنٍ تُسمَّى المَـدارس».[٣٦] في كلا المقطعين من النصّين، تظهر مظاهر الهنديّ الأحمر، إنسان، في عمليّة اتصال مع الطبيعة، على النَّقيض من الأوروبيّ، الذي يَسعى إلى تَحويل كلَّ شيء إلى منفعة مادية. وفي نصّ درويش هذا تأريخ لحق القتل والاستباحة. فعندما يتحدّث عن الهنود الّذين يموتون خير من الهنود الذين يعيشون، يستعيد دعوة الرّؤساء الأميركيين ومنظّري الاستعمار وأنبيائه الإنكليز، لمحو الهنود كواجب دينيّ وضرورة حضاريَّة.[٣٧] وعندما يتحدّث عن اصطياد الأطفال، يشير إلى سلسلة من السّرقات، التي قامَ مُنير العكش بتوثيقها في كتابه: أميركا والإبادات الثَّقافيَّة، والتي كانت ممنهجة ومقوننة ضمن قوانين الولايات الأميركيّة وبتعاون من قبل المكاتب المسؤولية عن السكان الأصلانيين، بهدف إخضاع الهنود عبر سرقة أطفالهم وإرغامهم على الذهاب إلى مدارس – معسكرات شقاء، فيها يتمّ تطبيق المَقولة الأشهر: اقتل الهنديّ وابق الجسد»، في أكبر عملية محو ثقافيّة تعرّض لها الهنود، وقام بالتّنظير لها عددٌ من السّياسّيين والأدباء، كمارك توين، الذي عبّر عن رغبته هذه لأحد جنرالات الحرب الأميركيّة، «أنّ الهنود مهما حاربتهم، سيبقون هنوداً، وسيتكاثرون، ولكن علَيك أن تستخدم الصَّابون، أن تقتل الهنديَّ في داخلهم».[٣٨]

في «هذه الأرض لا موت فيها/ فلا تغيِّر هشاشة تكوينها»، تظهر الرّوح الهندية غير القلقة على حاضر أو مستقبل، بل هي ترى ذاتها في هذه الأرض موجودة إلى ما لانهاية. على النقيض من هذه الهوية التي ترى في نفسها اتصالاً يبدو كونياً في استمراريّته، لا يتأثر بالمعاداة أو نوع السّلاح الذي تغيّر؛ هنالك الهويّة الفلسطينية التي تقع تحت شرط تاريخي كما يصف البعض، يوقظ سؤال الهويّة باستمرار. شرط يسببه حضور الآخر والمعاناة التي سببها هذا الحضور، المعاناة المستمرة المتواصلة، وأيضاً، تحت وعي تاريخي يقوم بإنتاج المقولة الذاتية في مواجهة تلك المعاناة، وهنا تأخذ الهويّة الفلسطينيّة خصوصيّة أخرى في مقولة ثالثة، تربط بين الضرورة المنطقية والضرورة التاريخيّة ألا وهي تجربة المنفى وما صاحبها من كفاح مسلح ومركزيّة هذه الرحلة – المنفى، في الحالة الفلسطينيّة وللهوية الفلسطينيّة.[٣٩] يحيل هذا إلى خصوصيّتين لكلتا الهويّتين؛ في الحالة الفلسطينيّة، الهوية قلقة، تتشكّل باستمرار، غير ثابتة وهي تواصل إيجاد نفسها وإنتاجها في مكان لنفسها ولذاتها، سواء في تبريرات تاريخية كنعانية أو ما قبل كنعانية، أو في حالات تسعى إلى الحصول على شيء حقيقيّ هو الوطن الأرض التي لا تشكّل ما تشكل بالنسبة للهنود، بل هي مبعث قلق تاريخيّ يحدِّدُ الشعب بالأرض والأرض بالشعب. وطالما كانت الهويّة الفلسطينيّة ليست بمنأى عن أعدائها في الواقع، ستظل مهددة ومطاردة. وعلى عكس من الحالة الفلسطينيّة، فإنّ الهوية الهنديّة تبدو مستقرّة ومتشكِّلة بمنأى عن أعدائها. غير قلقة من الزّوال، ربّما لأن تاريخها الخاصّ هو تاريخ الأرض نفسها التي يقول عنها مينز:»أنّ الأرض الأم، قد أسيئت معاملتها، وهذا ما لا يمكن أن يستمرّ إلى الأبد. لا نظرية بإمكانها أن تفنّد هذه الحقيقة البسيطة. الأرض الأم، سوف تنتقم، البيئة كلها، سوف تنتقم. والمسيئون سوف يتم استبعادهم، والأشياء ستعود إلى دائرتها الكاملة المتكاملة، منذ بدأت منذ البداية. هذه إعادة دوران. وهذه نبوءة من شعب. من شعب الهُوبِّي، ومن أناس آخرين يمشون على الطريق الصحيح».[٤٠] هذه هويّة لا تعاني نقصاً، بل هي تخبر عن نفسها فحسب. بما هي، وإن كان هنالك ما يقلقها فهو أنّه أحياناً، يتحتّم عليها أن تخبر عن ذاتها.

الإمبراطورية، وحقّ الحَرب

«سيَمضي زمانٌ طويلٌ ليُصبح حاضرنا ماضياً مثلنا
سنَمضي إلى حتفنا، أوّلاً، سنُدافع عن شجرٍ نرتَديه
وعن جرس اللّيلِ، عن قمَرٍ، فوقَ أكواخنا نشتهيه
وعن طَيشِ غزلاننا، سنُدافع، عن طينِ فخارنا سنُدافع
.. عمَّا قَليل
تُقيمون عالمكُم فوق عالمِنا: من مقابرنا تفتحون الطَّريقَ
إلى القَمرِ الإصطناعيّ، هذا زمان الصِّناعات. هذا
زمانُ المعادن، من قطعة الفحم تَبْزغُ شَمبانيا الأقوياء..
..
إلى أينْ، يا سيِّدَ البيض، تأخذُ شعبي، ... وشَعبَكْ؟
إلى أيِّ هاويةٍ يأخذُ الأرضَ هذا الرَّوبوت المدجَّجُ
بالطَّائرات
وحاملةَ الطَّائرات، إلى أيِّ هاويةٍ رحبَةٍ تَصعدون؟
لكم ما تشاؤون: رُوما الجَديدة، إسبارطَة التُكنولوجيا
و
أيديولوجيا الجُنونْ»[٤١]

يجلب درويش في السطر الأوّل ماضياً إلى حاضر هو نفسه أسير لماض آخر. يبدو كأنّه هو نفسه الزعيم الهندي في هذه القصيدة، مثّقفاً هندياً أخيراً، يرى نفسه في مرايا الموتى، الذين يجيء على ذكرهم لاحقاً، في عودة تبدو أبديّة كعودة نيتشه الأبديّ. يصوّر الشاعر هنا الماضي محمولاً بواسطة الحاضر، في صورة تكرّرت على مدى مئات السنين منذ بداية الاستعمار. مرة

يجلب درويش في السطر الأوّل ماضياً إلى حاضر هو نفسه أسير لماض آخر. يبدو كأنّه هو نفسه الزعيم الهندي في هذه القصيدة، مثقّفاً هندياً أخيراً، يرى نفسه في مرايا الموتى، الذين يجيء على ذكرهم لاحقاً، في عودة تبدو أبديّة كعودة نيتشه الأبديّ. يصوّر الشاعر هنا الماضي محمولاً بواسطة الحاضر، في صورة تكرّرت على مدى مئات السنين منذ بداية الاستعمار. مرة أخرى تحضر العلاقة مع الطبيعة والأرض، ولكن ليس للأحياء، بل للموتى. الموتى أيضاً يعودون إلى الطبيعة مع تجدّد عناصر الطّبيعة كلّ عام؛ إلى ارتداء الشجر والخلود. إلّا أنّ هنالك شرخاً تحدثه الآلة العسكريّة يحاول إعاقة العودة والاتصال الدّائم بالأرض وبالتّاريخ، هو ذاته الشرخ الذي تحدّث عنه درويش الذي تحدثه الآلة الإسرائيليّة.

أخرى تحضر العلاقة مع الطبيعة والأرض، ولكن ليس للأحياء، بل للموتى. الموتى أيضاً يعودون إلى الطبيعة مع تجدّد عناصر الطّبيعة كلّ عام؛ إلى ارتداء الشجر والخلود. إلّا أنّ هنالك شرخاً تحدثه الآلة العسكريّة يحاول إعاقة العودة والاتصال الدّائم بالأرض وبالتّاريخ، هو ذاته الشرخ الذي تحدّث عنه درويش الذي تحدثه الآلة الإسرائيليّة؛ هو الشرخ نفسه الذي نراه في هذه السطور، أمام دهشة المستعمَر، القديمة المتجددة من جنون الآلة والعصر والهاوية التي يكاد العالم ينجرف إليها.

عن هذا الشرخ يكتب مينز: «إنّها الطريقة التي من خلالها نعرف أنّ الإنسان ليس له الحق في أن يسبب الأذى للأم الأرض. أنّه هناك قوى وراء أيّ شيء استطاع العقل الأوروبي أن يقتنع به، أنّ الإنسان يجب أن يكون في انسجام مع كلّ شيء، مع كل العلائق أو أنّ العلائق ذاتها ستنحل إلى عدم انسجام مطلق.. لا حاجة لأي نظرية ثورية لشرح هذه الحقيقة: الأمر فوق قدر الإنسان على السيطرة. أناس الطبيعة على هذا الكوكب يعرفون هذا الأمر، ولذا، لا حاجة لهم لفهمه داخل نظرية ما. النظرية هي تجريد، معرفتنا هي واقع».[٤٢]

يتلاقى كلّ من درويش ومينز في الدهشة من الجنون الذي استحوذ على الأوروبيّ والمستعمِر. يتساءل درويش إلى أيّ هاوية رحبة تصعدون، ويجيب مينز أنّ الهاوية تلك ليست إلّا عدم انسجام كلّي لا يمكن أن ينتج عنه سوى العودة إلى البداية؛ الآن أو غداً، هذا إيمان. على حدّ وصفه. وهذا ما يجعل مينز يتخلّى عن النظرية؛ هو يتكلّم كما يفكّر وكما اعتاد أن يرى الأشياء من حوله. لم يشعر يوماً بنقص في الوجود الذاتيّ أو الهويّة الموروثة. على عكس درويش الذي لا يزال يتساءل عن المعنى وراء هذا كلّه، مأخوذاً بدهشته من الجنون الاصطناعيّ.

الإيمان بالأرض؛ الشيء الرئيس في فكر رسل مينز وفي الفكر الهندي. من الأرض تبدأ الأشياء وتعود إليها، والأرض هي الأم، حيث هي البادئة بالتّكوين وحيث الطّبيعة والتراتبيّة الطبيعيّة، وحيث الأشياء تظلُّ تعود بعد موتها بأشكال أخرى وأخرى. وفي وصف هذه العودة يكتب درويش: «هناك موتى يزورون ماضيهم في المكان الذي تهدمون/ هناك موتى يمرون فوق الجسور التي سوف تبنونها/ هناك موتى يضيئون ليل الفراشات/ موتى يجيئون فجراً لكي يشربوا شايهم معكم/ هادئين كما تركتهم بنادقكم/ فاتركوا يا ضيوف المكان/ مقاعد خالية للمضيفين، كي يقرأوا عليكم/ شروط السلام مع الميّتين».

في هذا الوصف تتلخّص الحياة الهنديّة، ما بعد الموت وما قبله في الحياة نفسها. حيث الحقيقة ثابت لا تتغيّر، على نقيضتها الأوروبيّة التي تسعى إلى العبث بالحقيقة على الدوّام وإعادة تعريف الأشياء إلى ما لانهاية حتى يتم تفريغ الكون من روحه وتحويله إلى مادة؛ وبكلمات أخرى، ما هو اليوم حقيقيّ وملموس، في الغد يكون قمامة يجب الانتهاء منه.[٤٣] وفي قصيدته هذه، يبدو درويش «مثقفاً هندياً»، ولكن ليس الأخير، أو كما وصفه أحد الناشطين الهنود: «سترى كيف يصبح درويش واحداً من أعظم شعرائنا».[٤٤] شاعر أو مثقف هنديّ؛ فقد مثّلت هذه القصيدة اعتناقاً لقضيّة الحرية ذاتها التي يفرضها على الهنديّ والفلسطينيّ «جلاد مقدّس واحد».

لماذا الشعر؟

يبيّن فانون أنّ القلق الذي يشعر به المثقف المستعمَر، هو ما يدفعه إلى البحث عن البرهان الذي يقول بوجود حضارة ساطعة، أو روعة مختفية تحت الرماد، في الماضي البعيد السحيق. هذا البرهان لا يكون فقط برهاناً لأجل مبارزة ثقافية ما، بل حاجة ضروريّة لتحقيق التوازن العاطفي والنفسي للمثقف.[٤٥] فعندما يجد المثقف نفسه عاجزاً عن إقامة أيّ علاقة حقيقية بالمكان في الحاضر أو عن تحقيق توازنه النفسيّ المطلوب مع ما حوله، يجد نفسه مضطّراً للبحث في القديم،

في الماضي، الذكريات، الأساطير؛ أيّ ماض قد يعيد إليه بعض التوازن.[٤٦] كذلك حال درويش وهو يقرن أناه وما هي، مع هذه الحاجة، في قصيدة طباق، متحدِّثاً بلسان إدوارد سعيد: «أنا ما أكون وما سأكون/ سأصنع نفسي بنفسي، وأختار منفاي/ منفاي خلفيّة المشهد الملحميّ/ أدافع عن حاجة الشعراء إلى الغد والذكريات معاً/ وأدافع عن شجر ترتديه الطيور بلاداً ومنفى/ وعن قمر لم يزل صالحاً لقصيدة حب/ أدافع عن فكرة كسرتها هشاشة أصحابها/ وأدافع عن بلد خطفته الأساطير».[٤٧]

هل بإخبارها عن نفسها بما هي عليه كانت وما ستكون وما هي الآن، يتحتّم على الهويّة العودة إلى الماضي لتجد برهاناً على نفسها؟ في قصيدة «خطبة الهندي الأحمر» تبدو الهوية في صراع ثابت مع الآخر، ولكنّه منته. أما قصيدة «طباق»، فالهويّة غير ثابتة: «والهويّة قلت، فقال: دفاع عن الذات، إنّ الهويّة بنت الولادة/ لكنّها في النهاية إبداع صاحبها».[٤٨] قد تكون العودة إلى الماضي مختلفة عمّا هي عليه عند فانون منها لدى درويش في خطبة الهنديّ الأحمر. إذ كان لا بدّ للهوية من رؤية نفسها من خلال نفسها قبل أن ترى نفسها في الآخر. هي لم ترَ نفسها عاجزة أو ناقصة في الحاضر، فلم يكن عليها البحث في أيّ ماض، لأنّ ماضي الهوية الهنديّة هو حاضرها لكونها امتدادا لنسق ثابت لا يتغيّر.

أمّا الحالة الفلسطينيّة، فقد ظلّت الهوية تبحث عن ذاتها في الماضي، تبحث وتستعير وتصطدم مرّة هنا ومرّة هناك. وذلك ما يمكن ملاحظته عند درويش في قصيدتيه: «هَهُنا والآن..»، و«على محطة قطار سقط عن الخريطة». إذ يبدو درويش في هاتين القصيدتين، كمثقّف هندي قد وصل أخيراً إلى شعور ثابت بالهويّة؛ أنّ الهوية هناك وهو هنا يكتبها وتكتبه، وهو ابنُها. كأنّهم أميركيون أصلانيون من يكتب عنهم في مقدّمة قصيدته «ههنا والآن..»:

« ههنا، بَين شَظايا الشيءِ / بَين شظايا الشّيء واللاشيء، نَحيا في ضواحي الأبديَّة/ نلعبُ الشّطرنج أحياناً/ ولا نأبَهُ بالأقدار خلفَ الباب/ ما زلنا هُنا/ نَبني من الأنقاض/ أبراج حمام قمريَّة/ نعرفُ الماضي، ولا نَمضي/ولا نقضي لياليَ الصَّيف بحثاً/عن فروسيّات أمس الذهبيَّة/ نحنُ من نَحنُ/ ولا نسألُ من نحنْ/ فما زلنا هُنا/ نَرتقُ ثوبَ الأزليَّة».[٤٩]

يتخلّى الشاعر عن مغامرات البحث والتساؤل عمّن يكون؛ كأنّه ملَك يقيناً أخيراً ممّن هو وممّن نحن. «وطنيّون / ولكنّا مللنا صورة النرجس في ماء الأغاني الوطنيّة»، هكذا يمكن الشعور بالثبات المتحرّك عبر كلّ سطر من سطور القصيدة.

وأخيراً، ففي قصيدته، «على محطة قطار سقط عن الخريطة»، يبدو أنّ الشاعر حرّر نفسه من كلّ هموم السؤال، القلق والآخر:

« أقولُ لمَن يراني عبر منظار على برج الحراسةِ:
لا أراكَ، ولا أراكَ.
أرى مكاني كُلَّه حَولي/ أراني في المكان بكلِّ أعضائي وأسمائي/ أرى شجر النّخيل يُنقِّح الفُصحى من الأخطاء في لُغَتي/ أرى عادات زَهرِ اللوزِ في تدريب أغنيَتي على فرح فُجائي/ أرى أثرى وأتبعه/ أرى ظلِّي وأرفعه من الوادي بملقط شعر كَنعانيّة ثكلى/ أرى ما لا يُرى من جاذبيّة ما يسيل من الجمال الكامل المتكامل الكُليّ في أبد التّلال/ ولا أرى قنَّاصَتي».[٥٠]

لماذا الشّعر؟ يجيب الشّاعر، الشعر يحرِّرُ الأنا، يحرِّرُ الكلام من عدسة بندقيّة القنّاص، واللغة تمكّن الشاعر من إعادة صياغة نفسه بمنأى عمّن هم ساهرون في برج الحراسة، وهذا ما يحتاجه الشاعر وآخرون لا يملكون حق الكلام.

الهوامش

١ منير العكش، أمريكا والإبادات الجماعية (بيروت، دار رياض الريّس للنشر، ٢٠٠٢)، ص ١٢٨

٢ العكش، أمريكا والإبادات الجماعية...، ص ١٠٤

3 Norman Finkelstein, “History’s Verdict: The Cherokee Case,” Journal of Palestine Studies, Vol 24, No 4 (Summer 1995) pp. 32-45.

4 Finkelstein, “History’s Verdict...”

5 Finkelstein, “History’s Verdict...”

6 Finkelstein, “History’s Verdict...”

7 Gabriel Piterberg, “ Erasures,” New Left Review, (10, Jul-Aug 2001), pp 31-46. https://newleftreview.org/II/10/gabriel-piterberg-erasing-the-palestinians

8 Piterberg,, “ Erasures”...

9 Piterberg,, “ Erasures”...

10 Piterberg, “ Erasures,”...

11 Piterberg, “ Erasures,”...

12 Theodor Herzl, The Jewish State: An attempt at a modern solution of the Jewish Question, (London: Pordes 1967), 13 – 15.

13 Herzl, The Jewish State:....

١٤ مارك فيرّو، الإستعمار: الكتاب الأسود (١٦٠٠-٢٠٠٠ م)، (دمشق: قدمس، ٢٠٠٨)

١٥ فيرّو، الإستعمار: الكتاب الأسود...

١٦ العكش، أمريكا والإبادات...

١٧ العكش، أمريكا والإبادات...

١٨ Piterberg,, “ Erasures,”.

١٩ ناشط سياسي واعلامي وممثل سينمائي أميركي ينتمي لجذور الهنود الحمر، كان مؤسس هيئة إعلامية أميركية مستقلة يدعى :أميركان إنديان موفمنت (American Indian Movement).من مواليد ١٠ تشرين الثاني ١٩٣٩ وبرز لأول مرة في عام ١٩٧٠ عندما كان ضمن مجموعة من الهنود الحمر احتلوا جبل رشمور كما قاد انتفاضة مسلحة في عام ١٩٧٣ في «ووندِيد نيي-الركبة المجروحة» بولاية داكوتا الجنوبية في نفس موقع مذبحة قبيلة السيوكس على يد سلاح الفرسان الأميركي في عام ١٨٩٠. جسد دور زعيم من الأصلانيين في فيلم «لاست اوف ذا موهيكانز» في عام ١٩٩٢، وانطلق بعدها ليشارك في أكثر من ٣٠ عملا في السينما والتلفزيون. توفي في ولاية داكوتا الجنوبية يوم ٢٢ تشرين الأول ٢٠١٢

٢٠ خطاب لرسل مينز ألقاه في تموز ١٩٨٠، منشور تحت عنوان: Russel Means, “ For America to Live Europe Must Die,” The Anarchist Library, https://theanarchistlibrary.org/library/russell-means-for-america-to-live-europe-must-die.

21 Means, “For America to Live....

22 Means, “For America to Live....

٢٣ محمود درويش، الأعمال الكاملة: ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً؟، (عمّان، الأهليّة للنشر والتوزيع، ٢٠١٤) المجلّد الثاني، ص ٥٩٣.

٢٤ عبد الرحيم الشيخ، «الهويّة الثقافيّة الفلسطينيَّة، ”المثال“ و“التمثيل“ و“التماثل“ في التجمّعات الفلسطينيَّة وتمثّلاتها ومستقبل القضيَّة الفلسطينيّة (رام الله: المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والدراسات الإستراتيجية، ٢٠١٣)، ص ٧١.

٢٥ الشيخ، «الهويّة الثقافيّة الفلسطينيَّة،...، ص ٧١

٢٦ منير العكش، تلمود العمّ سام، (بيروت، دار رياض لريّش للنشر، ٢٠٠٤)، ص ٢٣٧.

27 Timothy Egan, “Chief’s Speech of 1854 Giving new meaning “And words”, The New York Times, April 21 1992.

٢٨ محمود درويش، «كلام في الشعر: حوار» مجلّة الكرمل، العدد ٧٨ (شتاء ٢٠٠٤)، ص ١٨٩.

٢٩ العكش، أمريكا والإبادات...، ص ١٠٧

30 Means, “For America to Live....

٣١ العكش، أمريكا والإبادات ...، ص ١٠٧.

٣٢ محمود درويش، الأعمال الكاملة: ديوان أحد عشر كوكباً (عمان، الأهليّة للنشر والتوزيع، ٢٠١٤) المجلّد الثاني، ٤٢٧.

33 Finkelstein, “History’s Verdict”.

34 Means, “For America To live...”.

٣٥ درويش، الأعمال الكاملة: ديوان أحد عشر كوكباً، ٤٢٨.

36 Means, “For America To live...”.

٣٧ العكش، أمريكا والإبادات ...،

٣٨ العكش، أمريكا والإبادات ...، ص ٩٣-٩٩.

٣٩ الشيخ، « الهويّة الثقافيّة الفلسطينيَّة...»، ص ٧٩-٨١.

٤٠ Means,” For America To live...“.

٤١ درويش، الأعمال الكاملة: ديوان أحد عشر كوكباً، ص ٤٢٩.

42 Means, “For America to live...”.

43 Means, “For America to live...”.

٤٤ العكش، تلمود العم سام، ص ٢٣٧.

٤٥ فرانز فانون، معذّبو الأرض (عمّان، الأهليّة للنشر والتوزيع، ٢٠١٥)، ص ١٢٩-١٣٢.

٤٦ فانون، معذّبو الأرض

٤٧ محمود درويش، الأعمال الكاملة: ديوان كزهر اللوز أو أبعد، (عمّان، الأهليّة للنشر والتوزيع، ٢٠١٤)، ص ٥٢٨.

٤٨ درويش، الأعمال الكاملة: ديوان كزهر اللوز أو أبعد

٤٩ محمود درويش، الأعمال الكاملة: ديوان لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي (عمّان، الأهليّة للنشر والتوزيع، ٢٠١٤) ص ٥٥٣.

٥٠ درويش، الأعمال الكاملة: ديوان لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي، ص ٥٦٧.

إعداد وترجمة: وئام بلعوم

مترجم- هكذا كشف أشرف مروان لإسرائيل عن ساعة الصفر لحرب أكتوبر

أشرف مروان لزامير: «يمكنكم منع الحرب من خلال نشر الخطة في الإعلام»

نشر أرشيف دولة إسرائيل مؤخراً على موقعه الإلكتروني عن مجموعة وثائق عسكرية بمناسبة الذكرى ٤٥ لحرب اكتوبر عام ١٩٧٣. على رأس الوثائق، برقية بعثها رئيس الموساد تسفي زامير صباح السادس من اكتوبر عام ١٩٧٣ لرئيسة الحكومة الإسرائيلية غولدا مئير، تضمنت تحذيراً واضحاً بأن مصر وسورية على وشك شن هجوم مشترك على إسرائيل من مساء اليوم. البرقية هي عبارة عن ملخص لقاء زامير مع أشرف مروان، عميل الموساد، عقد في لندن قبل بيوم من اندلاع الحرب. يقول زامير في البرقية لرئيسة حكومته إنه يمكن منع الحرب من خلال «نشر أخبار في الراديو والصحافة، تثبت للمصريين، يشمل القيادة العسكرية، أن الإسرائيليين يعرفون خطة الحرب ومستعدون لها» وأنه بحسب أشرف مروان سيكون لهذا النشر «أثر كبير في مصر».

من الجدير بالذكر أن هذه البرقية المكتوبة سبقتها محادثة هاتفية (مباشرةً بعد لقاء زامير ومروان) بين رئيس الموساد زامير ورئيس مكتبه أوضح له فيها بكلمات شفرة اتفق عليها مسبقاً عن أمر الحرب (كما أن مجرّد سفر رئيس الموساد للقاء مروان في هذا التوقيت بالذات اعتبر إشارة للحرب). يذكر أن زامير لا يذكر في البرقية أشرف مروان بالاسم بل يسميه «المصدر».

النص الكامل لبرقية رئيس الموساد لغولدا مئير حول جلسته مع أشرف مروان في تاريخ ١٩٧٣/١٠/٥:

«سري للغاية – شخصي

أخبار من الجلسة في تاريخ ٧٣/١٠/٥

١. الجيش المصري والجيش السوري على وشك شن هجوم على إسرائيل يوم السبت ٧٣/١٠/٦ قبل حلول المساء.